

البَابُ الثَّانِي

التاجر

« لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل »
الشافعي

كان أبو حنيفة خزازاً يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف ، وقديماً كان نبي الله لإدريس أول من خاط الثياب ، وكان الصديق أبو بكر بزازاً وكثيرون من جلة الصحابة كانوا تجاراً .

ومن ألف وأربعمائة عام قبل أبي حنيفة كان أفلاطون يعمل في التجارة ويقول : « أريد الثراء ولكني لا أريده من الظلم » ، وبيع الزيت في مصر ليسد نفقات رحلاته ، ومن بعد أبي حنيفة بألف عام كان اسبنوزا يصنع العلسات .

كان أبو حنيفة تاجراً صناعته الفكر ، ومفكراً يعمل في التجارة ، ومن ثم كان توفيقه التجاري ، الذي انحدرت إلينا أنبأؤه مع التاريخ . ومرده قطعاً إلى دراية ذات شعب ، وأسلوب كأحدث ما تكون أساليب العصر الحديث يسموعن الإعلان ، وهي ذرائع تكني لإحداها للنجاح ، فكيف إذا اجتمعت لدى رجل كله لباقة ، وأناقة ، استطاع أن يجعل من المال أداة لنشر الفكر ، وما أقل من كان الفكر مشغلة حياتهم ، وقدر لهم مع ذلك أن يجدوا في الأرض مراغماً وسعة تجنيهم أن يسعوا لدى الأمراء أو الأغنياء ، مؤثرين أن يلقوا بأنفسهم في معترك الحياة بالخروج إلى السوق العام ، في صميم الميدان ، أو في عرض الخضم ، بالكلدح والدأب واللغوب .

بهذا حل أبو حنيفة العقدة التي يقف بإزائها المفكرون حزني مبلسين ، عقدة الفقر الذي عود الناس أن يلزم الفكر ، والمفكر الذي يرتحل رحلة الحياة الدنيا جرعان تعساً نهدر المسغبة مزايه : يقدح فكره المعية ولوذعية ، ولكنه لا يستطيع أن يحيل هذه القيم الهائلة إلى ثمن بخس ، دراهم معدودة ! ويتراءى له بريق النعماء ويعجز عن اللدومته والدلف إليه فتتحالف عليه مركبات النقص ، وتضيق به المسالك المتنادحة ، فينوء بالحياة مثلما فاعت به الحياة .. ويخرج منها محروماً مقترأ عليه في الرزق .

في حالتنا كان فقيه الكوفة من أكبر تجار الكوفة ، فلم يك ممن يجلسون إلى الأرض ويرفعون أكف الضراعة إلى السماء ، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، أو يمدونها إلى الأمراء فإن مال الأمير ثمن لنفس العالم ، أو يرقبون أن تنهض

حظوظهم العواثر دون أن يركضوا تلك الحظوظ في حلبة من الحلبات ليروا مبلغ ما تكبو ، أو تصلى ، أو تجلى .

ذلك أسد بن الفرات أعز نفسه وأذل واهبه حين قسم إبراهيم بن الأغلب بين الفقهاء أعطياته فقبل البعض وأبى البعض ، فنّ ابن الأغلب عليهم بعطائه فقال أسد : « لا عليه إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي . . . » ولم يكن أسد ليقوها إلا وهو القاضي العامل في القيروان ، والفتاح الغازي الذي مات على رأس الجيش في حصاره لسراقوسة بصقلية سنة ٢١٣ .

عرف أبو حنيفة أنه كلما بعد الفقيه عن الحاجة قربت الفتوى من الله، وكلما أغناه الخلق عن الخلق أدناه إلى الحق . . وإذا لم يكن الفقه أداة للطعام تداول الدنيا كلها بين أنامله .

وأدرك الشافعي ذلك من بعده بنصف قرن فقال : « لا تشاور من ليس في بيته دقيق فإنه موله العقل » .

ولقد عرفه أبو حنيفة فلم يربط نفسه إلى البأساء والضراء بأمراس كتان من الرهبة المضيفة ، والتبتل المؤذي ، في حياة يجب أن يعمل فيها المرء لدنياه كأنه يعيش أبداً ، وفي أمة يقول رسولها إن أفضل الكسب «بيع مبرور وعمل الرجل بيده» ، و «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بجمرة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» .

و « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، كما قال عليه الصلاة والسلام .

كان الليث بن سعد - إمام مصر - ذا ثراء عريض يضع الدنانير في الفالودج فن أكل من صحبه أكثر نالته دنانير أكثر . . ! وكان صاحباً لمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وكان مالك يقول عنه : « حدثني من أرضي به من أهل العلم » ، ومع ذلك كتب إليه في تريب يقول : « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » :

وأدركت ضفاف النيل لذع الضربة الموجهة إليها من شمس الصحراء ، فاستعان الليث عليها بالله ، يذفع عن نفسه مذمة لبس الرقاق أو أكل الرقاق ، فكتب إليه

يقول : « قال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ) » .

وعاش الليث في جباهه وماله كأصحاب التيجان فلم يمنع ذلك أن يقول عنه
الشافعي إنه « أفتقه من مالك لولا أن أصحابه لم يقوموا به » .

كانت الكوفة عاصمة العراق ، وكان العراق أئمن جوهرة في التاج ، فيه ست
كور ، أولاها كورة الكوفة ، وكان له شأن أى شأن ، فيه النهران يجران ، بالرخاء
والعمران ، تتصل به من الشرق والشمال حضارتان عريقتان هما حضارة الفرس
وحضارة الروم ، ثم تلاقت الحضارتان فيه مع حضارة الدين الجديد ، كما تلاق
رجال الدين من كل رأى يجاهدون في سبيل العلويين ، وفي سبيل الأمويين ، وفي
سبيل ابن الزبير ، وفي سبيل بني العباس ، وفي سبيل الأمة ، أو في سبيل أنفسهم ،
فأى جيشان بعناصر الحياة ، ولوازع النماء ، وأسباب القوة ، كانت تجيشه هذه
الكورة ، وأى مضطرب للفتى المثقف والتاجر الحصيف ثمة ! وبخاصة إذا كان
يبتغى النجاح بمعناه الإنساني لا المالى ، وبمعناه الذى أرادته الله لا معناه الذى
يحصى ويعد بمقدار ما ينتج من النقد ، بل همه وكبر مناه أن يسلف لنفسه عند
خالقه قلم صدق بما قدمت يداه .

بدأ أبو حنيفة حياته في التجارة يطبعه الطابع العلمى ، فدخل السوق يدرس
على أستاذ يعلمه التجارة سماه للإمام الشعبي يوم وجهه للدرس الفقهي كما مر بنا ،
وهي ظاهرة تترامى لك في حياة أبي حنيفة في غير موضع . مردها إلى ما فيه مزاج
جامع بين العلم والعمل ، فيتذرع بالدرس والعلم حتى فيما هو عملي محض ، حتى إذا
كان في ريعان حياته قلم إليه رجل تاجر فقال له : « أراك تتجر ، التجارة إذا كانت
بغير علم دخل فيها فساد كبير فلم لا تتعلم ولا تكتب » ولئن كان ما عناه هو العلم
العام ، إن الطابع العلمى يثبت به مثلما يثبت لو كان ما عناه هو الفقه ، ولعل
الفائدة التي يفيدها التاجر بالعلم العام خير وأبقى في العمل التجارى .

وهكذا دخل إلى السوق ملخلاً كريماً فأضحى فيه من المجتهدين والمجدودين ،
اختار لذلكه مكاناً من أبرز أمكنة الكوفة في دار ليست هيئة على التاريخ ، هي
أبو حنيفة

دار عمرو بن حريث - الصحابي - يلتقي بها المؤرخ حيث يجد الجلد في حياة العراق،
وحيث يكون للأماكن شأن .

ففي سنة ٨٢ سار ابن الأشعث من البصرة إلى الكوفة لقتال الحجاج ، وثار الكوفيون بواليهم ، ومالوا إلى ابن الأشعث وسبقت إليه قبيلة همدان تحف به عند دار عمرو بن حريث ، وفي سنة ١٢١ خرج زيد بن علي وخرج أهل الكوفة معه فجرت المعارك دامية بين أبنية الكوفة عند دار عمرو بن حريث ، فوهى لا مرية كانت من أظهر معاهد الكوفة حيث يستقبل الفاتحون وتدور أرحاء المعارك . . وحيث سوق الحرير .

وإنك لتتصور مظاهر الذوق في ترتيب دكانه مما كان عليه في خاصة شأنه حسن هيئة ، وبزة ، وتفكير وتعبير ، بل إنك لتكاد بعد هذه القرون والمسافات تنسم العطر يتأرجح من أردانه وزوايا دكانه ، وتتصور النساء إذ أقبلن أو أدبرن ، بائعات أو مشتريات ، بغضضن من أبصارهن ولا يبدن زينتهن . يدلفن إلى الدكان كأنما يفلن إلى الدرس ، ويفصلن عن دار ابن حريث كأنهن يفصلن عن المسجد الجامع ، وكأنما كن في الدكان في المحراب .

كان صاحب هذا الدكان يقول : « من وصف امرأة صغيرة أو كبيرة فقد وصف قدمها ، ومن وصف قدمها لم يكن عدلاً » ، ويقول : « إذا قامت المرأة من موضعها فلا تجلس فيه حتى يبرد » ، وكان رحمه الله إذا مشى في الطريق ، لا يعرف الرجل من المرأة . قال في وصية لأحد مريديه : « .. وإذا مشيت في الطريق فلا تلتفت يمنة ويسرة بل داوم النظر إلى الأرض .. ولا تماكس بالحبات والدوانيق .. » فياله من رجل رفيع وتاجر رفيع .. يدرك قيمة لفظه وخطرات نفسه فلا يبخسها بإنفاقها في المساومة والمماكسة سواء أكان ذلك بالحبات والدوانيق أم بغير الحبات والدوانيق .

جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً وتوسلت إليه بسنها أن يرفق بها ...

قال : دونك هذا الثوب يا أمه ..

قالت : بكم ؟

قال : بأربعة دراهم .

قالت : لا تسخر مني وأنا عجوز لا حيلة لي .. !

قال : إنه لكذلك . لقد اشتريت ثوبين فبعت أحدهما بالثمن كله إلا أربعة دراهم . وهذه الدراهم الباقية ما أطلبه منك ثمنًا للثوب الباقي . .

أضف إلى هذه الصورة وإلى آداب التجارة، أن الحانوت ليس محلاً للمداورة، وإن تولى التلاميذ البيع فيه بين الفينة والفينة، وهكذا بقيت دار ابن حريث خالصة للتجارة . أما العلم فبقي دائماً في مكانه . لا في السوق ، ولا في الطريق .

في ذلك الحانوت يجلس سيد مكيث غير عجل ، مخبور التجارب ، يتقبل الناس بقبول حسن ، وضياء الحياء ، منبسط الطبع ، ميمون النقيبة ، ينصف الناس من قبل أن ينصف نفسه من الناس ، لا يمايل ، ولا يتخيف ، ولا يستكبر ، ولا يستكف . يقصده فظ القلب فيألفه ، ويمر به الرجل فيجلس إليه لغير قصد ولا مجالسة ، فإذا قام سأله عن فلان كانت به فاقة وصله ، وإن كان به مرض عاده ، حتى يجره إلى مواصلته .

أما صدق المعاملة والنفرة من المماكسة ، فكانتا كلمة السر في دكانه ، لكأنما كانت كل ألواح الثمن محده مرسومة في مخيلة حرفائه وعملائه قبل أن تشد إلى جدر الدار ، فلئن كان صاحب الدكان أستاذ الأساتيد في الجدال ، إن لكل مقام مقالًا . . . وليس هنا مقام الجدال .

وهو لا يهتبل غفلة الزمان ، أو غفلة الإنسان ، بل إنه ليقطع أبعد الأشواط في مضمار النصفة ، فلا إعلان ، ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون في الإعلان من إيهام ، والحرير الحر يعلن عن نفسه أنه حرير حر بلا كلام .

كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم . تأسروهم الكلمة إذا سبقت وأوفى السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو على سمعه وفي دكانه .

طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد أخرج ثوبًا ، فأخرج

حماد ثوبًا ونشره قائلاً : صلى الله على محمد . . !

قال أبوه : مه قد ملحته . .

ورفض أن يبيعه .

واضطرب المشتري في السوق يبحث عن ثوب آخر ولم يوفق فعاد إلى دار ابن حريث أشد ما يكون حاجة إلى الثوب ، وأظهر ما يكون استعداداً لدفع الثمن ، ولكن الشيخ في غير مخاشنة ولا مشاقة ، بل في سماح وإسجاج ، رفض أن يبيع .
وعاد المشتري أدرأجه .

وفي ذلك الحانوت بضاعة لا تعرضها الحوانيت الأخرى في سوق الخزازين ، يقصد الرجل من أقطار الجزيرة إلى الكوفة ليشتري لبنته جهازاً ، فينبهه الناس على الجهاز في دكان « الفقيه الخزاز » . وإن الذين يعرفونه ليحذرون الذين لا يعرفونه من المماكسة ، ولا حرفاء لقاء ذلك أن يشتروا بالثمن العدل .

وإذا خدع تلميذ من تلاميذ الشيخ مشترياً فقبض منه ألف درهم واف ، وباهى التلميذ بين يدي أستاذه بما صنع رد الأستاذ ما زاد على الثمن ، بعد إذ حاول استرداد الثوب ورد الألف بتأمرها .

وكما كان التفكير أدواته في الفقه ، كان الفكر أدواته في التجارة . كان الثمن في دار ابن حريث يتحدد على أساس من الربح المعقول يضاف إليه نفقات الشراء والبيع مقيسة بقياس العدل والعقل ، فكما كان القياس الأعظم في تاريخ الفقه على ما سترى بعد كان القياس المنصف في ثياب الخزاز في دار ابن حريث .

حقاً ، إنك لا تستطيع أن تجزم هل كان التوفيق التجاري قد جاءه عن الفقه أو أن الفقه قد اتخذ من التجارة أسباب وجوده ، لكن ثمة قدراً متيقناً تستطيع أن تقرره بين الجوابين . هو أن الصدق والحزامة في التجارة قد هيا له من النجاح أسباباً مواتية للتفرغ لدين الله ، في روحانية المتعبد ، يستقبل تلك اللحاحات التي يبعثها الإلهام في الكون كومضات النور ، والسعيد السعيد من رآها ، وكانت ملكاته متحفزة تلقاها . كما تستطيع أن تقرري أن التجارة ربطت بين دنيا الفقه ودنيا الناس في أفكاره ، فغدا فقهه فقه الحياة التي نحيهاها : ورحم قلبه ضعف الإنسان ، وكان التسامح كبرى قواعده ، وتحمل مسؤولية المخاطرة ، فصعد بالرأى في مزاج موفق بين العمل والعلم ، والمعقول والمنقول ، وامتد بصره فشمّل المستقبل ووضع

لاحتمالاته ما يحكمها من الأصول متحرراً - كما قال - من البلاء قبل نزول البلاء .

وكما أثرت في الفقه التجارة ، أحدث الفقه في التجارة آثاره . فلئن كانت في الفقه العصري مقولات مسلمة (كالغش المباح) أو (الكذب المباح) يتبادل تطبيقها المتعاملون كل حين ويصح معها العقد وإن كانت تستزريها قواعد الآداب ، إن الأستاذ كان يدرك أن دكانه فتح ليتمم مكارم الأخلاق .

بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه في التجارة وأعلمه أن في ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين واستوفى ثمناً كاملاً لثوب غير كامل - وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً أو خمسة وثلاثين ألفاً - فأبى أبو حنيفة إلا أن يعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشتري ، ولكنه لم يهتد إلى الرجل ، فأبى أبو حنيفة إلا فصلاً من شريكه وتاركاً .

بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله وتصدق به كاملاً .

ذلك مثله لإنصاف المشتري من نفسه ، وهذا مثله إذ ينصف من نفسه البائع . جاءه رجل بثوب يبيعه قال بكم ؟ قال بكذا . قال إنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف ! بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة - فقالت لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة ، مائة ، حتى قالت أربع مائة . قال هو خير من ذلك ، قالت تهزأ بي ؟ قال هاتي رجلاً . فجاءت برجل فاشتراه بخمس مائة درهم .

وصلقت المرأة أنه لم يتخذها سخرياً ، وصدقت كملك أنه لم يك يريد الإحسان إليها . . وإنما نفع الله به البائع والمشتري .

فهو ينصف المشتري منه ، والبائع له ، وينصف من لا يبيع له ولا يشتري منه . كل أولئك ونظائره في لين وخفض جناح ، وسلاسة طبع وسلامة أسلوب ، فإذا راح يقتضى دينه من مدينه لم يجلس في ظل جداره !! قالوا إنه لا يريد أن يتقاضى من مدينه أكثر من دينه بأن ينوء إلى ظلانه إذ يجيء إلى داره ، وهو الورع الحق ، لكنه قبل ذلك الورع ، دقة نفس ورقة حس ، لا تضيف إلى عمر المدين إلحاح

الدائن ، إذ يترصده .. فلا يجزى المطال بالاحتلال وإن كان الاحتلال مجرد فيء إلى الظلال .

ترى هل كان هذا الخزاز بالكوفة أو ذلك البزاز بمكة الذي وصفوه بأنه كان رجلاً وسيماً : . . . وكان رجلاً تاجراً ذا خلقٍ ومعروفٍ وكان رجال قومه بألفونه لقبير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته . . . !

ذلك أبو بكر الصديق ، وهذا أبو حنيفة ، وقد كان بينهما تواصل ذهني يتراءى خلال ذلك التشابه : في العمل وفي الطباع ، حتى إن أبا حنيفة كان يأخذ بأبي بكر وأفعاله وخصاله .

وذات يوم بعث إلى فتية يقول لهم : إن أباكم أودع عندي مائة وسبعين ألفاً فخذوها . . ! ولم يشهد عليهم فإنه لم يكن أشهد عليه ، وهو لا يريد أن يعلم أحد أن لهم هذا المال .

فلما جاءه الأجل ظهرت عنده ودائع بخمسين ألفاً ردت لذويها .

وازهرت تجارة أبي حنيفة أيما ازدهار ، إن هذا الإنفاق الضخم لمحاربة الفقر ونشر العلم كما سترى بعد ، وهذا التصدق بعشرات الآلاف ، أو التجاوز عنها ، لا تسمح به إلا البيوت المالية الوطيدة الأركان والناجحة كل النجاح ، حتى لقد بلغ من ازدهارها أن قيل إن بعض أعداء أبي حنيفة دس له عند المنصور أن أموال أبي حنيفة استعملت في تقوية إبراهيم بن عبد الله (ابن الحسن بن الحسن ابن علي) إذ خرج على أبي جعفر وإنه لهذا حبس أبا حنيفة .

إلى هذا القدر بلغت هذه الأموال .. أن تساعد في إدالة دولة وإقامة دولة . . !
بهذه القواعد التي بسطنا بعضها كانت دار ابن حريث تضرب الأمثال

كريمة للناس .

إنك لا تستطيع أن تقنع الناس بالرأى ولا بالعلم ، فالدينا مدرسة مكبرة ، والحقائق لا تفهم مصورة ، ولا مجهرة ، قدر ما تفهم بالتطبيق . والناس في الدنيا كالتلاميذ في المدارس لن يفهموا شيئاً إلا إذا صنعوه بأنفسهم ، أو صنع على أعينهم بالرفق وحسن الأداء - والكلام لا يهدي قدر ما يهدي العمل ،

وما تهدي القدوة : والقدوة في العلم هي أن تبدأ بنفسك فتسكب ذاتك فيما تصوغه للناس من قواعد أو نصبه من قوالب :

أذن النبي لصحبه وهم على سفر في الإفطار شهر رمضان وبقى هو صائماً : فلم يقطعوا صومهم حتى عمد إلى الفطر ، فحفوا إلى الاقتداء بفعله وأفطروا . . .

ونظر فتیان من أسباط الرسول عليه السلام - يجرى في عروقهما دم الهدى والرسالة - إلى أعرابي على شاطئ الفرات يخفف الوضوء فقالا لنفسهما ، لو قلنا له غلظت ربما انتفضت أوداجه ، ولا ينقاد إلى الحق : فقاما إليه ، وقالا له : نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بالوضوء والصلاة منا ، فتوضأ ونصلي عندك ، فإن كان عندنا قصور فعلنا ، فتوضأ وصلينا كما عرفنا عن جدنا عليه الصلاة والسلام . فتاب الشيخ ورجع عن صنيعته .

إن قاعدة الإصلاح في جيل هي أن يصلح المصلح نفسه قبل أن يتحدث في إصلاح سواه . فالنفس هي التي تسمح لا الأذن : وفي الناس لحاجة تنبعث من أعماق حب الذات أو الدفاع عن النفس تسوقهم إلى الاستمسك بما هم عليه والاستسلام إليه .

خطب عمر بن الخطاب يوماً وعليه ثوبان فقال : أيها الناس ألا تسمعون ؟ قال سلمان : لا نسمع .

قال عمر : ولم - يا أبا عبد الله ؟

قال : إنك قسمت علينا ثوباً ثوباً ، وعليك ثوبان .

قال : لا تعجل . ونادى : يا عبد الله ! فلم يجبه أحد . قال : يا عبد الله

ابن عمر - ابنه .

قال : لييك يا أمير المؤمنين .

قال : نشدتك الله ، الثوب الذي ائترت به أهو ثوبك ؟

قال : اللهم نعم :

قال : سلمان : أما الآن فقل نسمع .

ذلك سلمان الفارسي أو الناس جميعاً . . . ومع الخليفة الذي خطب ،

عندما تولى : ألا وإنى أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة والى اليتيم إن استغثت صفت وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، تقرر البهمة الأعرابية القضم (الأكل بأطراف الأسنان) لا الخضم (الأكل بأقصى الأضراس) :

وقديماً قيل : خير من الخير فاعله . وشر من الشر فاعله .

ولقد علم أستاذ الكوفة عبد الله بن مسعود أجيالها اللاحقة هذه الآراء فقال : « إن الناس أحسنوا القول كلهم : فمن وافق فعله قوله فذلك الذى أصاب حظه ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه » ومن قبل قال عليه الصلاة والسلام : « إن فى جهنم أرحاء تدور بعلماء السوء ، فيشرف عليهم من كان يعرفهم فى الدنيا فيقول ما صيركم فى هذا وإنما كنا نتعلم منكم ؟ » قالوا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم إلى غيره . »

وقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا » .

من أجل ذلك كان الزعماء العالميون قوماً زاهدين ، وخاض القادة المبرزون معاركهم فى الصفوف الأولى وفى الطليعة : كخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وغاندى فى الشرق ، وكروويل ، وسالازار وديفاليرا فى الغرب .

ومن ثمة تدرك أثر القدوة فى عمل التاجر الكريم النفس والكريم الفعال .

شارك حفص بن عبد الرحمن أبا حنيفة ثلاثين عاماً وكان رجلاً صالحاً روى عن شريكه الحديث والفقہ . ولا ينيك عن الشريك مثل الشريك ، فهو العليم بكل خلجة من خلجات الضمير التجارى للزميل التاجر ، وما أدراك ما فى الضمير التجارى : المخالب المخضبة تقطر من دم الضحايا ، والمخارج ، والحيل ، والسعار المعذب المتدفع نحو كل ما هو مادي ومالى . . . ! إلى جوار القواعد الرشيدة والسجايا الحسان والآداب العالية للتجارة .

فلنستمع إذن لحاصل التقرير الختامى عن الشركة حيث يقول حفص : « جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنسك وأهل الورع منهم ، فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال من أبى حنيفة » .

ولئن سمعت أحاديث الورع في مجال الورع فمن العجب حقاً أن يباهى الشريك التاجر بورع الشريك التاجر وبزهده ونسكه وعلمه ، مجتمعة ، كل أنواع الفقهاء والزهاد والنسك مجتمعين .

ولنستمع إليه مرة أخرى يقول بعد أن تثاركا : « في طول ما صبحت أبا حنيفة وخالطته لم أره يعلن بخلاف ما يسر ، ولم أر أحداً يتوقى مما لا خطر له مثلما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من شيء أخرج من قلبه ذلك ولو بجمع ماله » .

ذلك رجل من أقوى الرجال ، يظن مثل ما يعلن ، ولا يصنع في السر إلا ما يصنعه في الجهر ، فيرى الله أمامه ولا يرى البشر .

ولئن جاء في الحديث أن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق ، أو كان من أصول فقه أبي حنيفة أن الشك لا يزيل اليقين فإن هذا الأصل للناس وليس له : ولو كلفه ذلك جميع ما له .

إن أبا حنيفة قدوة للناس في علمه ، فليكن قدوة للناس في عمله ، وليأخذ نفسه بالشدائد ، حتى إذا تقلوا عن الأصل ، وخف الأثر في النقل ، وصل إليهم ما نقلوه وفيه كل الفضل .

قال لأبي يوسف : « ولا ترض من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات بأكثر مما يفعلونها ، يعتقدون فيك السوء وقلة الرغبة فيها ، ويعتقدون أن علمك لا ينفعك ولا يفيدك إلا ما أفادهم الجهل الذي فيهم . . . وكن من الناس على حذر ، وكن لله في سر كما أنت له في علانيتك فلا يصلح أمر العلم إلا بأن تجعل سره كعلانيته » .

ولما نهى الأمير عن الفتيا فأنهى ، جاءه ولده حماد يسأله عن مسألة في داره فلم يجبه ، قال يا أبت مالك لا تجيبني قال : « أخاف أن يسألني السلطان هل أجبته أحداً فلا أستطيع أن أقول شيئاً » .

ولقد كانت له به مندوحة في أن يفتى ، لكن الرجل القدوة لا يرى لنفسه

الرخص ولا المناوح ، وإنما يؤثر في حق نفسه أن يكون عند عهده وأن يكون حرق الوفاء .

على هذه القواعد وأشباهاها قام ذلك البيت التجارى في دار ابن حريث بضع عشرات من السنين ، تكفى للتمكين لتاجر صيبت راكمي الأحداثة نقب في البلاد ذكره وذكر عروضه من نفائس وأعلاق ، ومكرمات وأخلاق ، يحف به الحسن من كل جانب ، حسن الهيئة وحسن البزة وحسن الطلعة ، والوجه الصبوح خطاب توصية فيه القبول .

• • •

جاءت تكاليف الإسلام للناس كافة وكان صاحب الرسالة أول المسئولين عما يسأل الناس عنه .

كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشع من خبز بر ، ويأتى على أهله الليالى ما يجلدون فيها. عشاء ، ولما مرض مرض الموت قال لعائشة وهى مسنده إلى صدرها يا عائشة ما فعلت تلك الذهب ؟ قالت هى عندى ، قال فأنفقيها ، ثم غشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صدرها. فلما أفاق قال هل أنفقت تلك الذهب يا عائشة ؟ قالت لا والله يا رسول الله . فدعا بها ، فوضعها في كفة : فعدها فإذا هى ستة دنانير فقال : ما ظن محمد بر به لو لقي الله وهذه عنده : فأنفقتها كلها ومات من ذلك اليوم .

وكان عمر يأخذ لنفسه من بيت المال يومياً درهمين هما كل المخصصات العمرية | بهذا استطاع أن يضرب ولاته بالذرة ! ويضرب عامله على البحرين (أبا هريرة) حتى يدميه ويأخذ منه ١٦٠٠ دينار وهو يقول « والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين » ويسأل عمرو بن العاص ، من أين آل إليه المال ويشاطره أمواله :

مر يوماً ببناء بينى بأجر وحص فقال لمن هذا ؟ قالوا لعامل من عمالك قال : أبت الدراهم إلا أن نخرج أعناقها .. وشاطره ماله ! ولما أخذ يستخلف قالوا له لو أنك عهدت إلى عبد الله - ابنه - فقال : « بحسب أهل الخطاب

أن يحاسب منهم رجل واحد : ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافاً
لا لى ولا على .

لكن صاحب هذه النفس القوية يرى فى فحمة الحلك أطفالاً جياً
فيحمل إليهم اللقيق من دار اللقيق وينفخ النار تحت القدر حتى يطبخ لهم
واللخان يخرج من خلال لحيته !!

هذه العمريات التى تذر المفكر فى ذهلة المتحير ، وهذا التوفيق الذى
سددت به العناية الإلهية خطى أبى بكر وعلى وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص
وابن مسعود وزيد بن ثابت وأمثالهم فى كل فن وضرب ، وما تبع هؤلاء
جميعاً من وثبات فكرية وسياسية وبطولات تزدهى بها معالم التاريخ الإسلامى ،
ليست إلا أصداً مفرقة لصوت واحد ، هو صوت المثل الأعلى من الرسول
عليه الصلاة والسلام . ما يزال يدوى خلال القرون حتى يقف هذا الكوكب
السيار عن أن يدور : وإنما يتردد الصدى ذلك التردد البعيد المنى ، فتهتز
له النفوس اهتزازات تخلق الفحولة والبطولة ، لأن الصوت الأصيل الذى يدوى
فى الأرض هابط إليها من السماء : تصيب تفحاته من أحاطوا به ومن لم يحيطوا :
فانتقلوا من الجاهلية إلى هدى الإسلام وغدوا حكماً وحكاماً وعلماء ومشرعين
وشعراء ومختبرين وفنانين وأبطالاً فى الوغى يجدلون الأبطال ، ليس ما أحدثوه
إلا آثاراً بما أحدثه الصوت الأول فيهم . فلما سعدت روحه إلى بارئها كانت
كوعاء العطر إذا فاض قدومه فاض العطر فى كل مكان وانتشر !

ما عمر بن عبد العزيز ، ولا المأمون ، ولا أبو حنيفة ، ولا الشافعى ،
ولا ابن سينا ، ولا ابن رشد ، ولا طارق بن زياد وأترابهم فى كل فن من فنون
العلم أو السياسة أو الحرب ، إلا رجال تضم جنوة الإيمان فيهم حرارة الرسالة
التي كانت تغمر قلوبهم بالنور .

إنما هى الزعامة الصحيحة المملأ باليقين تخلق الناس خلقاً جديداً وتنعكس
على أنفسهم شتى الانعكاسات ، فتحدث الأحداث متقاربة أو متباعدة ،
فى العصر نفسه أو بعده بأعصر ، فلا تهم المسافة الزمنية والمكانية ، وإنما

يهم الإيمان الصحيح الذى يخلق القوى العارمة فتتخطى حدود الزمان والمكان .
وسترى بعد كيف كانت حياة أبي حنيفة قدوة للفحول والأبطال .

• • •

كان أبو حنيفة خزازاً ، كما كان كثير من رجالات الفقه بعده تجاراً
وصناعاً .

هذا الإمام الخفاف أحمد بن عمر بن مهير ، أبوه تلميذ محمد والحسن
صاحب أبي حنيفة ، كان الخفاف يؤلف للمهتدى بالله كتاب الخراج ،
ويصنف كتبه العظيمة فى الفقه فى حين يعيش من خصف النعال . وهذا
الكرائيسى يبيع الكرايس ، أو الثياب الخام ، وهذا القفال يخرج يده فإذا
على ظهر كفه آثار فيقول هذا من أثر عملى فى « صناعة الأفعال » ، وهذا
ابن قطلوبغا يعمل خياطاً ، والخصاص شيخ زمانه يتسبب إلى العمل فى الجص .
ثم هؤلاء الصغار من بيع الأواني الصفرية (النحاسية) والصيدلانى (من بيع
العطور) والحلوانى الذى كان أبوه يبيع الحلوى ، والدقاق ، والصابونى
والنعال ، والبقال ، والقدرى وغيرهم كثيرون يشهدون من خلال حقب التاريخ ،
وبمجرد أن انفجر فجر الحضارة الإسلامية ، أن هذه الأمة حققت العصور
الأولى ما جاهد العالم الغربى عشرات القرون لتحقيقه ، ولما يكذب بحقيقته ،
أن ليس ثمة مهن رفيعة وأخرى وضيفة ، وإنما ثمة رجال رفيفون وآخرون لا رفعة
فيهم . ويشهدون . بمبلغ ما أعزت هذه الأمة العلم وأعزها العلم فأوردت كل الناس
سنه ، وبمبلغ ما أعزت الصناعة فجعلت لها سهمها المسلم فى أمسى الذرى ،
فترى فيها ما لا تكاد تراه فى أى أمة أخرى الفقهاء الصناع : والصناع
الفقهاء يصنعون للناس الفقه والصناعة معاً ويقضون حياتهم فيما بينهما جيئة وذهوباً .

بل هؤلاء فحول يجمعون بين العلم والعرش مثل عمر بن عبد العزيز ،
كان العلماء عنده تلامذة ، كما قال ميمون بن مهران ، وعبد الملك بن مروان
الذى قال عنه ابن عمر : إن مروان ابناً فقيهاً فأسأله ، والمأمون عبقرى التاريخ
الإسلامى ، وعيسى شرف الدين الأيوبى الذى يضع كتاب الرد على الخطيب

البغدادى سنة ٦٢١هـ يوضح به عن إمامه أبى حنيفة .
 تلك شريعة أمية تتسع لجمهور الخلق فى كل الأمم وكل الأعصر فهماً
 وتطبيقاً . يفهمها الأميون ، كما يفهمها الأعلون من الخاصة لأنها (فِطْرَةُ اللَّهِ
 الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) قوامها الصفاء والسهولة والصراحة ، فى حلقات
 البحث مضمار للأفذاذ وللأفراد وللملوك أيضاً . كل ميسر لما خلق له ،
 فلا غرو أن يرقى إلى الأوج العلى فيها أصحاب الحرف ، وأن يسود فيها
 الرجل بهمته لا بمهنته ، فى حضارة لحمها وسداها الإخاء ، يجب المؤمن بها
 لأخيه المؤمن ما يحبه لنفسه ، والمؤمنون فيها كالجسد الواحد ، « إذا اشتكى
 عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

تلك المظاهر الفقهية والاجتماعية التى نشهدها فى الحضارة الإسلامية
 تصدر عن أصل عميق يتبدى لك كلما وازنت تاريخ الفقه الإسلامى وتاريخ
 الفقه فى سائر الأمم فهناك يصدر فقه العبادات من الصوامع والبيع ، وهنا
 يصدره رجل الدنيا . . وهنا فقه العبادات وفقه المعاملات مجتمعان . وهناك
 بين المعاملات والعبادات خلافاً أى خلافاً ، فلا يتحدث عن العبادات
 فقهاء كفقهاء الإسلام يضطربون فى أسواق الحياة ولكن قسيسون ورجال
 يستمرئون فى عزلتهم الفاخرة نعمة القداسة ويستترئون فيوض الإلهام ، أما
 الحنيفية السمحة فالدنيا عندها سبيل الآخرة حقاً ولكنها لا تعرف الرهبة ولا
 الطقوس ولا المراسيم ، وهى إذا كانت جهاداً ضد النفس وضد الكفر فهى
 أولاً وبالذات دين اجتهاد .